افتتاحية العدد :

بسم الله نبدأ... *أما قبلُ* ...

فإنَّ وراء نشأة النحو العربيّ قبل زهاء خمسة عشر قرنا هجريًّا عواملَ عِدَّةً ، لعلَّ من اهمِّها وأخطرها انتشار أمر اللحْنِ ، وهو الزَّلَل في اللغة ، سواء في نطق بعض أصواتها ، أو الخطأ في الجانب الصرفيّ ، أو التركيبيّ ، أو الدِّلاليّ منها ، وقد ظهرت هذه الأخطاء مجتمعة أحيانا ومتفرِّقا بعضها عن بعض أحيانا أخرى ، وسُمِّيَ هذا كلُّهُ لَحْنًا. وقد بدَتْ أمَارات اللحن في البيئة العربية فيما ترويه بعض الروايات عن شخوص من العرب ؛ إذ يُروَى مثلا عن ابنة أبي الأسود الدؤليّ أنها قالت لأبيها : يا أبت ما أحسنُ السماءِ فقال : أيْ بُنَيَّةُ ، نجومُها ، فقالتْ : إنِّي لم أُرِدْ : أيُّ شيءٍ مِنْها أحْسَن ؟ إنما تعجبْتُ مِن حُسْنِها ، فقال إذًا قولي : ما أحْسَنَ السماءَ !

وسمع أعرابيٌّ مؤذناً يقول : أشهد أن محمداً رسولَ الله . بنصب رسول . فقال الأعرابيّ : ويحَك! يفعل ماذا ؟! . أمّا في بيئة غير العَرَب ، فقد تواترَت الروايات في أنواع اللحن ، منها :

- اللحن في نطق الأصوات ، وذلك يحدث عندما لا يستطيع المتكلم إخراج الصوت من مخرجه ، فيبدل منه آخرَ قريبًا منه ، وهذا يحدث مع الأعاجم ، وهو المعروف باللُّكنة – كما قال الجاحظ – التي هي عُجْمَة في اللسان وعِيٌّ . كان على غير العرب ، لأغراض الدين والدنيا جميعا ، أن يتَّخِذوا من اللسان العربيّ الذي نزل به الذكْرُ الحكيم ، لسانًا ينطقون أصواته ويتَرَسَّمُون خُطَا أهلِه في إنشاء عباراتهم ، ولم يكنْ ذلك عليهِمْ بالأمر الهَيِّن ، فأنَّى لهم أن يكُفُّوا

ألسِنتهم عن النُّطْقِ بِمَا دَرَجَتْ عليه من أصوات لغاتهم الأصليَّة ، أو أنْ يَلْوُوا مَنْطِقهم ليلائمَ ذلك اللسانَ الجديد .

ويُسَمِّي الجاحظ ذلك "اللُّكْنة" في قوله في البَيَان والتَّبْيِين : ويقال في لسانه لُكْنَة إذا أدْخل بعض حروف العَجَم في حروف العرب ، وجَذَبَت لسانَه العادةُ الأولى إلى المَخْرَجِ الأوَّل ... ألا ترى أنَّ السِّنْدِيَّ إذا جُلِبَ كبيرا ، فإنه لا يَستطيع إلا أنْ يَجْعلَ الجيمَ زايًا ، ولو أقام في عُلْيا تميمٍ وفي سُفْلَى قيسٍ وبَيْنَ عَجُزِ هوازن خمسين عاما ، وكذلك النَّبَطِيّ القُحّ الذي يجعل الزاي سِينًا ، فإذا أراد أن يقول "زَوْرَق" قال "سَوْرَق" ، ويَجْعلُ العَيْن همزةً["عِنْدَ" مثلا تُنْطَق "إِنْدَ"] ، والنَّخَّاس (تاجِر العَبيد والإماء) يَمتحِن الجارِيَة وأهْلُها يَزعُمُونَ أنَّها مُوَلَّدة ، بأنْ تقول "ناعمة" ، و"شمس" ثلاثَ مرَّاتٍ متَوَالِيَاتٍ.

ويَسُوق الجاحظ أمثلةً أخرَى لشيُوع اللُّكْنة ، حتَّى بين بعضِ مَنْ وُصِفَ بالفصاحة مِنْ ذوي الأصُول الأعجميَّة مِنَ الخُطَباء والكُتَّاب والشُّعَراء ، ومِنْ هؤلاء "زياد بْنُ سَلْمَى" وهو "زياد الأعْجَم" ، وقد حُكِيَ عنه أنَّه كانَ يُنْشِدُ قولَه: فَتًى زاده السُّلْطانُ في الْوُدِّ رِفْعَةً إذا غيَّرَ السُّلْطانُ كُلَّ خليلِ

فكان يَجعلُ السين شِينًا والطَّاء تاءً ، فيقول : فَتًى زاده الشُّلْتانُ.

ومِنْ هؤلاء كذلك الصَّحَابِيُّ صُهَيْبُ بْنُ سِنَان النَّمَرِيّ الذي حُكِيَ عنه قوله : إنَّك لَهائن ، يُريد: إنَّك لَخَائن.

ومِنْهم أبو مسْلِم الخراسانيّ ، صاحِبُ الدَّعْوَة العباسيَّة ، وكان موصوفا بحُسْن اللفظ وجَوْدَة المعنى ، غيرَ أنَّه كان يُبْدِل القاف كافًا .

وقدْ ذكر أحَد الشعَراء هذه اللُّكْنة التي كانَتْ زَوجته تُعَاني منها ، في رَجَزٍ ساخرٍ يَقول فيه : أوَّلُ ما أسْمَع مِنْها في السَّحَرْ

تَذْكيرُها الأنْثَى وتأنيثُ الذَّكَرْ

والسَّوْءةُ السَّوْءاءُ في ذِكْرِ الْقَمَرْ

إذْ كانَتْ تبدلُ القاف كافًا.

ومِنْ ذلك : ما رُوي من قولِ غلامٍ لمولاه زياد : أهدَوا لنا هُمَارَ [يعني حمارَ]وَهْشٍ ، فقال : ما تقول ؟ وَيْلَك ! فقال : أهدَوا لنا أَيْرًا [يعني عَيْرًا] ، فقال زياد : الأوَّل خَيْر !.

يقصد : حمار وَحْشٍ (أي الحمار الوَحْشِيّ) لكنه أبدل الحاء هاء ، وأيرًا أي عَيْرًا وهو حمار أيًّا كان أهلياً أو وحشياً ، وقد غلب على الوَحْشِيّ ، والمتكلم أبْدَل العين همزة.

- اللحن في بنية الكلمة ، قيل لنَبَطيٍّ : لِمَ اشتريتَ هذه الأتَان ؟ فقال : أركبها وتلَد لي، بفتح اللام من تلد .

فقَدْ أخْطأ خَطأً صرفيًّا بفتح لام تلِد ، وحَقُّها الكَسْر .

- اللحن في تركيب الجمل ، قال الجاحظ : قلت لخادم لي : في أي صناعة أسلموا هذا الغلام ؟ قال : في أصحاب سِنْد نِعَال ، يريد في أصحاب النِّعال السِّنْدية.

فقَدْ أخْطأ الخادم خَطأً نحويًّا بتقديم النَّعْت على المنعوت.

ومِنْ أمثلة اللحن في التركيب ما رواه الجاحظ قال : ارتفَع إلى زياد رجلٌ وأخوه في ميراث فقال : إنَّ أبونا مات وإنَّ أخينا وثَب على مالِ أبانا وأكَله ؛ فأمَّا زياد فقال : الذي أضعْتَ مِنْ لسانِك أضَرُّ عليكَ مِمّا أضعْتَ مِنْ مالِك.

ولَمْ يَنتَهِ أمر اللحن عندَ حُدُود العبارات اليومية على ألسِنة العامَّة أو ذَوي الفصاحة ، بل تسلَّل إلى قراءة القرآن الكريم ؛ ومِنْ ذلك ما رُوِيَ عن الحجَّاج بن يوسفَ الثَّقفيّ المعروف بفصاحته ، أنَّه سأل يَحيى بْنَ يَعْمُر(هوفقيه ، علَّامة، مقرئ، كان قاضيَ مرو، ويقال إنَّه مَنْ نَقَط المصاحف، وكان من فضلاء الناس وعلمائهم، وله أحوال ومعاملات، حدث عن أبي هريرة وابن عباس وغيرهم من الصحابة. وحدث عنه عبد الله بن بريدة وقتادة وغيرهما ... : أتجِدُني ألْحَنُ؟ فقال: الأمير أوضح من ذلك ، فقال: عزَمْتُ عليك لَتخبرني أألحن؟ قال يحيى: نعم، فقال له: في أي شيء؟ فقال: في كتاب الله، فقال: ذلك أشنع ، ففي أي شيء من كتاب الله؟ قال قرأت (قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) التوبة٩/٢٤، فرفعتَ (أحبَّ) وهو منصوب ... فقال الحجاج ليحيى: لا تساكنّي ببَلدٍ أنا فيه ! ونفاه إلى خراسان)[١].

ورُوِيَ أن قارئاً قرأ قوله تعالى: (أَنّ الله بريءٌ مِّن المشركين ورسولِه)، فكسَر اللام، من (رسوله) وهي في الآية بضمِّ اللام، والفرق في المعنى كبير جداً بين ضَمِّ اللام

---

[١] https://ar.wikipedia.org/wiki يحيى بن يعمر

وكَسْرِها، أقول : إنّ الفرق كبيرٌ جداً، بل لو تعمَّده القارئ لكان في حقه كفرٌ، وذلك أنَّ معنَى الآية : أنّ اللهَ ورسولَه بريئان من المشركين، ولكنَّ مَنْ يَلْحَن في الآية ، يجعل معناها أن الله قد تبرأ من المشركين ومن رسوله ، ولذلك غضِب عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – لمَّا بلغَه هذا اللحن، وقال : لا يُقرئ القرآنَ إلا من يُحْسِن العربية . [صبح الأعشى ١ / ٢٠٦.]

وقرأ آخر قوله تعالى : (إنَّما يَخشَى اللهَ من عباده العلماءُ) ، وهي بنصب لفظ الجلالة الله)، ورفع (العلماءُ)، ولكن القارئ (رفع لفظ الجلالة) و (نصب العلماء)، فقيل له : يا هذا، إن الله تعالى لا يَخشى أحدا، فتنبَّه لذلك وتفطَّن له. [صبح الأعشى ١ / ٢٠٦.]

وقد عَزَا بعض الباحثين انتشار اللحن وتعاظُمَ خطره إلى دخول غير العرب إلى بلاد الإسلام ، وما صحِب ذلك من احتكاك بهم ترك أثره البالغ في العربية وأهلِها.

يجمع الباحثون قدماء ومحدثون على أن فشوَّ اللحن واستفحالَ خطره وتسربه إلى قراءة القران الكريم والحديث الشريف كان سببا رئيسا من أسباب وضع النحو ؛ وسنعرض لطائفة من الاحداث التي تؤكد خطورة اللحن على العربية والتي حفزت العلماء الى وضع النحو .

يقول بعض الباحثين المحدثين هو الشيخ محمد الطنطاوي في "نشأة النحو" ١٨. بعد أن استعرض تاريخ ظهور اللحن: " لهذا وذاك أهابت العصبية العربية بالعلماء في الصدر الأول الإسلاميّ أن يصدوا هذا السيل الجارف الذي كاد يكتسح اللغة العربية بما

قذف فيها من لحن تسرب يعدواه في القرآن الكريم والسنة الشريفة ، بما هُدُوا إليه وسمَّوه : علم النحو".

ويرجح هذا الباحث أن أسباب وضع النحو تعود الى مجموعة من الحوادث لا إلى حادثة معينه خاصة ، مستشهدا بمقالة لابن خلدون في هذا الصدد ؛ قال الباحث :" فالحق الذي لا ينبغي العُدُول عنه أنَّ وضْعَ هذا العلم إنما كان لهذه الحوادث متضافرة"...

قال ابن خلدون :"فلما جاء الاسلام وفارقوا الحجاز.... وخالَطوا العجَم ، تغيرت تلك الملكة بما ألْقَي اليها السمعُ من المخالفات التي للمتعَرِّبين ، والسمع أبو الملكات اللسانية ، ففسدت بما أُلْقِيَ اليها مما يغايرها ، لجنوحها إليه باعتياد السمع ، وخشي أهل العلوم منهم أنْ تفسد تلك الملكة رأسا، ويَطُول العهد بها ، فينغلق القرآن والحديث على المفهوم. فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد، يقيسون عليها سائر انواع الكلام ، ويلحقون الاشباه بالأشباه ، مثل ان الفاعل مرفوع والمفعول منصوب ، والمبتدأ مرفوع ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات، فاصطلحوا على تسنيته اعرابا ، وتسمية الموجب لذلك التغير عاملا ، وامثال ذلك ، وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو.

وهذا الذي ذكره ابن خلدون كان ذكره أبو بكر الزبيدي قبله ؛ قال :

"ولم تزل العربية تُنطَق على سجِيَّتها في صدر إسلامها وماضي جاهليتها ، حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان، فدخل الناس فيه أفواجا وأقبلوا إليه أَرْسالا "أي : أفواجا ، واجتمعت فيه الألسنة المتفرقة، واللغات المختلفة ، ففشا الفساد في اللغة العربية واستبان

منه في الإعراب الذي هو حَلْيُها ، والموضِّحُ لمعانيها. فتفطَّن لذلك من نافر بطباعه سوء أفهام الناطقين من دخلاء الأمم بغير المتعارَف من كلام العرب ، فعَظُم الإشفاق من فُشُوّ ذلك وغلبته ، حتى دعاهم الحذر من ذهاب لغتهم وفساد كلامهم إلى أنْ سبَّبُوا الأسباب في تقييدها لِمَنْ ضاعت عليه ، وتثقيفها لمن زاغت عنه طبقات النحويين واللغويين ١١ .

وبحث الدكتور شوقي ضيف عن أسباب وضع النحو ، فرَدَّها الى بواعثَ مختلفة : "منها الدينيُّ ومنها غير الدينيّ .

أما البواعث الدينية فترجع الى الحرص الشديد على أدَاء نصوص الذِّكْر الحكيم أدَاء فصيحا سليما إلى أبعد حدود السلامة والفصاحة ، وخاصة بعد أنْ أخَذ اللحن يَشِيع على الألسنة " .

وزاد على البواعث الدينية بواعثَ أخرى سمَّاها بواعثَ قوميَّة عربيَّة وبواعث اجتماعية.

أما البواعث القومية فترجع "إلى أن العرب يعتزُّون بلغتهم اعتزازاً شديداً ، وهو اعتزازٌ جعلهم يَخْشَون عليها من الفساد حين امتزجوا بالأعاجم مما جعلهم يحرصون على رسم أوضاعها خوفا عليها من الفناء والذَّوَبان في اللغات الأعجمية " المصدر نفسه ١٢.

وأمَّا البواعثُ الاجتماعية " فترجع إلى أن الشعوب المستعربة أحسَّت الحاجة الشديدة لمن يرسم لها أوضاع العربية في إعرابها وتصريفها حتى تتمَثَّلها تمثُّلا مستقيماً ، وتتقن النطق بأساليبها نطقا سليما " المصدر نفسه.

وظهرت تلك البواعث عند الدكتورة خديجة الحديثي بتسمية أخرى ، فأطلقت عليها اسم الدوافع الى نشأة النحو، فقالت :

"ولم يكن الحفاظ على القرآن هو الدافع الوحيد إلى التفكير في وضع قواعد وأصول لحماية اللغة وضبطها ، وإنما كانت هناك دوافع أخرى تضافرت جميعها على القيام بهذا العمل الجليل ، وأوْضَح هذه الدوافع :

١. الدافع الدينيّ : وهو الدافع الرئيس والسبب المباشر الذي أدَّى إلى التفكير في وضع ما يسمَّى عِلم العربيَّة على اختلاف فروعه وعلومه من أصوات ولهَجات ومُعْجَمَات وغريبٍ ونحوٍ وصرف.

فقد كانت خشية المسلمين على كتابهم أن يصيبه اللحن في قراءته أو التصحيف في أحرفه ، فيؤدي ذلك الى تحريف آياته، وتغيير المفهوم منها ، وبذلك تتغير الأحكام المأخوذة منه ، والمبنِيَّة عليه ، ويصبح المفهوم من الآية كفرا وهو إيمان أو حراما وهو حلال .

٢. الدافع الاجتماعي : ويأتي هذا الدافع مُكْمِلا للدافع السابق ، ومرتبط به أشدَّ الارتباط وأوثقه ، فقد كانت البيئات الاسلامية كافة تغُصُّ بالقوميات المختلفة التي كانت تسكن في البلاد المفتوحة أو التي هاجرت إليها بعد الفتوح الإسلامية ولاسِيَّمَا البصرة ...

فخشيَ علماء المسلمين على لغة القرآن أن يصيبها التحريف نتيجة هذا الاختلاط ، ولكثرة الداخلين في الإسلام من الذين يؤدِّي بهم جهْلُهم إلى الخطأ في قراءة القرآن ، فأخذوا يبذلون الجهود في سبيل ضبط اللغة وإبْعاد اللحن ...

وكان لرغبة الداخلين في الإسلام في تعلُّم العربية لغة القرآن، والعبادات الدينية ولغة الدولة الحاكمة ليُصْلِحوا بها أمور دينهم ، وليستطيعوا مشاركة العرب في إدارة شئون الدولة.

٣. الدافع اللغويّ القوميّ : كان في البلاد العربية عند نشوء اللحن ووقوعه في اللغة العربية ثلاث لغات متداوَلة ...

أ. اللغة المحكيَّة في الحواضر حتى نهاية القرن الأول ، أو اللغة المثالية وبها نزل القرآن

ب . اللغة البدوية المستخدمة في البوادي وهي التي اعتمدها النحويون واللغويون .

ج . لغة الحواضر المحكية بعد القرن الأول للهجرة ، التي استخدمت في مكة والمدينة والطائف والحيرة وأطراف الشام.

"وقد أدَّى اختلاط لغات هذه الحواضر بلغات القوميات المختلفة وغيرها إلى فساد لغتها... ولذلك أصبحوا يرسلون أولادهم إلى البادية لتلقي اللغة الفصيحة... وبعد انتشار الإسلام خاف العرب المسلمون على لغتهم لغة القرآن من التحريف والذَّوَبان والضياع ، ودفعهم الأمر إلى ضبطها وتقييدها بما وضَعُوا لها من قواعد .

رئيس التحرير

أ.د. علي محمد هنداوي